الفصل الثانى
القيم العسكرية (قيم السّلمَ والحربْ)

١ ـ المبحث الأول (الشجاعة).

٢ ـ المبحث الثانى (الفروسية).

٣ ـ المبحث الثالث (الجهاد).

٤ ـ المبحث الرابع (اقتحام الأهوال).

٥ ـ المبحث الخامس (العفو عند المقدرة).

٦ ـ المبحث السادس (السماحة).

(الشجاعة)

١ ـ مفهوم الشجاعة.

٢ ـ شروطها.

٣ ـ بواعثها.

٤ـ مظاهرها.

١ ـ مفهوم الشجاعة:ـ

الشجاعةً شدَّة القلب فى اليأس. وتَشَجّعَ الرجلُ أظهر ذلك من نَفسِهِ، وتكلّفُه ولَيْسَ بِهِ، وشجَّعهُ جَعَلَهُ شُجاعاً أو قوّى قَلبه[١]. وقد حَثّ الإسلام[٢] على تلك السجيّة لنيل الجزاء ورغبة فى رضا الله.

والشجاعة (الإقدامُ على المكارهِ والمهالك عِنْدَ الحاجة، وثبات الجأشِ عند المخاوف والاستهانة بالموت)[٣].

وهناك إيضاحات عن الشجاعة ذكرها الشعراء فى نظمهم ومن المفيد أن نوفى بها المقام حقه من العناية والاهتمام.

ومن المعلوم أن الجهاد ضد اسبانيا النصرانية فى عصرى ملوك الطوائف والمرابطين قد ترك أثراً كبيراً فى إنتاج الأندلس الفكرى، ولا سِيّما إنتاجها الأدبى الرفيع.

وقد صّور الشعراء معانى الشجاعة فى ممدوحيهم فالأمير شجاع إذا بارز خصمه، أقبل عليهم الخصم متهيّاً متردداً وأدبر عنه هارباً فاراً. قال ابن زيدون[٤]:

أرى الدَّهْر: إنْ يَبْطِشْ فأنتَ يَمينُهُ ... وإنْ تَضْحَك الدُّنيا فأنتَ لَها ثغرُ

هَمَامٌ إذا لاَقَى المَناجِزَ ردَّهُ ... وَإقْبَالُهُ خَطْوٌ، وإدْبَارُهُ حُضْرُ

---

(١) انظر اللسان: باب الشين مادة (شجع).

(٢) انظر الفتح: ١٥، التوبة (١٣ ـ ١٥) الصف: ٤، ١١، الانفال: ٩.

(٣) يحيى بن عدى: تهذيب الأخلاق: ص٢٩.

(٤) الديوان: ص٥٧٥.

(*) المناجره: المبارز فى ميدان القتال. (**) الحضر والاحضار: ارتفاع الفرس فى جريه.

ومما لاشك فيه عاش الأندلس دوّامة القلق الدائم على الحياة ومصادر العيش لذا كان على استعداد دائم للدفاع عن البلاد والحياة ـ فللشجاعة على هذا الأساس أهمية كبرى فى صنع مصير الفرد والجماعة لذا وجدهم الأعمى التطليلى شجعاناً صناديد عند الحرب أما فى السلم فهم كرماء أسخياء.

وَلَـــم تَـــر إلاّعاثـــراً بدمائـــهِ ... يحاذرُ كُلْماً أو يدافعُ عن كلم[1]

يرى الموتَ دونَ المجدِ غُنْماً من الغُنْم ... ولا حصَن إلا السيفُ فى يد ماجدِ

كأسْدِ الشرَّيِ فى الحرَب كالمزنِ فى ... بهالـيلُ أبطـالُ جحـاجحُ سـادةُ

رأيتَ الأسودَ الضاريات على العُصْمِ ... إذا ركبوا الجُرْد الجيادَ إلى الوغى

ولعل هذه الأبيات تبين لنا كيف تكون الشجاعة الحربية والغيرة على المحارم[2].

كأنـكَ حـرّمت الحـياةَ علـيُهم ... غداة الوغى لما استحلوا المحارما

فلـم تَـبْقَ مـن أهـل الـضّلال بقّـيةٌ ... لقـد عـادتِ الأعـراسُ فـيهم مآتما

٢ ـ شروطها*:ـ

لقد عشق مسلمو الأندلس الشجاعة ولم يأت إقدامهم من كونهم أمّة أحبت الاعتداء والشّر لا بل لكونها أمة أحبت الخير والسلام وسعت إلى تثبيت كيانها من خلال مواجهتها للأعداء الذميّن. فالشجاعة عندهم كانت واضحة فى الرد على الاعتداء فى سبيل العز والكرامة والوجود، وشمائلهم تشهد على ذلك بأفواه شعرائهم قال ابن حصن الأشبيلى[3]:ـ

---

(١) انظر الديوان : ص١٧٧ ـ ١٧٨، وينظر سامى أحمد الموصلى: دراسات أندلسية: ص٨٧ ط/ ١/ ١٩٧٠. وانظر نظيره فى شعر ابن الحداد: ص٤٧ وديوان ابن الزقاق البلنسى ص٩٥، ١٨٤، ٢٦٦.

(٢) انظر ديوان ابن حمد يس: ص٤٢٦ ـ ٤٢٧، وانظر نظيره فى ديوان ابن زيدون: ص٤١١.

(*) انظر شروط الشجاعة فى ديوان المعانى: جـ١ ص١١٢ لأبى هلال العسكرى.

(٣) الذخيرة: م١ ق٢ ص١٨٢.

هـمُ القـوم طابـوا أبْطُـنا وعمائـراً وطابـوا شـعوباً قـوبلت وقـبائلا

ضـراغمُ آجـام تهـبُّ لـدى الوغـى شمائلـهم فـى المـأزقين شمـائلا

فمـا حملـوا إلاَّ بنـصرٍ حمـائلا ولاأعلـنوا الاَّ بـنجُحٍ عـواملا

ومن شروط الشجاعة التقدم مع الظفر فى ذلك قال المعتمد [1] بن عباد:-

ياضيغماً يقتل الأبطال مفترساً لا توهننِّى، فإنى النَّاب والظفُر

وترنم فيه أبو بكر محمد [2] بن أحمد الإنصارى المشهور بالأبيض (ت٥٢٥ هـ).

تَعَـشَّقَ الـدِّرْعَ إذْ شُـدَّتْ لفائفُـهُ وأنْكَـرَ المَهَـد لمـا عـايَن الفَرَسَـا

بَـشِّرْ قـبائلَ مَعْـنٍ أنَّ سَـيِّدَهَا قـد أثْمَـر المُلك بالمجـدِ الـذى غَرسـا

وفى حمد مغبة الإقدام مع احتمال أشد الآلام بشجاعة وصبر وثبات، قال عبد الله بن محمد* القطار [3]:-

إذا تَـسَعَّرتِ الهـيجاءُ أخْمَـدَها مـا فـى معاطفهـا مـن نَـدْوَةِ العَـرَقِ

هـى البحورُ ولكـن فـى كوائِـبها عـند الكـريهةِ مـنجاة مِـنَ الغَـرَقِ

أما فى رباطة الجأش التى تقوم أساساً على ضبط النفس عند مواجهة الخطر، مع سكون القلب وحضور اللّب، وقطع دابر الشر، على هذا السياق يقول أبو بكر الصيرفى [4]:-

---

(١) الديوان : ص١٠١.

(٢) المغرب: ص١٢٧ ـ ١٢٨ ترجمة ٤٤٢ تحقيق الدكتور شوقى ضيف.

(*) الأبيض شاعر هجاء، ولع بهجاء الزبير الملثم صاحب قرطبة.

(٣) انظر الحماسة المغربية: جـ٢ص١١٦٣. *(كان فى مدة ملوك الطوائف، الهيجاء: الحرب. والمعاطف: الأعضاء . الكوائب: جمع الكائبة وهو من الفرس قدام السرج، وانظر الذخيرة: ق٤ م١ ص٣٧٩.)

(٤) ديوان المعانى: ج١ ص١١٢ ـ وانظر الحماسة المغربية جـ٢ ص١١٦٢. ونظيره فى لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢١١ ـ ٢٦٣ تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادى وأحمد ابراهيم الكتانى ـ دار الكتاب، الدار البيضاء: ١٩٦٤م.

يـا أشـجع الأبطـال لـيلة أمـسه ... والـيوم أنـتَ مـع الـتجارب أشـجعُ

أهـديك مـن أدب الوغـى حلمـا بهـا ... كانـت ملـوك الحـرب مـثلما تولـع

واحـذر رد مـينَ الـروم عـند لقائهـا ... وامـضى كميـنك خلفهـا أذ تدفـع

لا تـبقين النهـر خلفـك عـندما ... تلقـى العـدو فـشره مـتوقع

ومن شروط الشجاعة إرهاب الأعداء وإشاعة الذعر والخوف فى نفوسهم لتفرقة صفوفهم[1].

إذا ثار حربك أثوابَها ... ليسوا بأنكاس ولا عُزل

وفى تصعيد درجة الرعب، مع تجريعهم ألوان العذاب يقول [2]الأعمى التطليلى:-

تَـسَرْبَلُوا للحـربِ أثْـوابَها ... ليـسوا بأنكـاسٍ ولا عُـزل

وَأوْرَدُوا أعـداءَهُمْ مَـوْرداً ... رَنْقـاً مـن الغَلـسْينِ والمُهْـل

وفى التغلب على الصعوبات والأفكار التى تتجاوز المعتاد يقول ابن الزقاق البلنسى[3]:-

لـو كنتَ شاهده وقـد غَـشَ الوغـى ... يختالُ فـى ضـافى الحديـد المـسيلِ

لـرأيت مـنه والحـسامُ بكفـهِ ... بحـراً يـريق دمَ الكمـاةِ بجـدولِ

أما محمد بن سعيد بن ياسر العنسى (ت٥٣٩ هـ) فقد جمع بين شرط الثبات فى ساحة المنازلة وبين لطف الكرم قائلا [4]:-

---

(١) ديوان المعتمد بن عباد: ٢٩٧ تحقيق رضا السويس.

(٢) الديوان : ص١٢١.

(٣) الديوان: ص٢٤٨ وانظر ديوان ابن خفاجة فى الشجاعة: ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٤) انظر الأحاطة: جـ٣ ص٢١٧.

فَخـرنا بالحـديث بعـد القـديم من معالٍ عذوبة توراثت كالنجوم
نحـن فـى الحـرب أجْـيُلُ راسـيات ولـنا فـى الـنَّدى لُطـفُ النـسيم

وعلّوَ الهمة والعز والطموح شرط أساسى فى الشجاعة التى أكدها محمد بن عيسى بن عبد الملك قزمان(ت ٥٥٥ هـ).

لى همَّةٌ ولأهـل العـزِّ مَطمَحُهـا لا زلتُ من كلِّ مجد مطمح الهمم[١]

والشجاعة الحقّة تقوم على التجرؤ والفطنة دون تهور مع تجنب الخطر الذى لا داعى له قال ابن حمديس[٢]:-

همـامُ صـريُّح العـزم سـلّ سـيوفَهُ فـذَبّبتُ ضـرباً عـن خـدور المحـارم
تلـوذ المـنايا مـنه، والدهـر عـباسُ بـأرْوَعَ مـن ثغْـرِ الرئاسـةِ باسـم

وقد حُمدوا على الشجاعة لأنهم قوم خلقوا أساسا للحرب وتمرسوا على سحق الجماجم[٣]:-

زيانـيةُ خَلِقُـوا للحـروب يـشبّون نيرانهـا بالوقـود
مـساعرهم مـرهفات بـنين لهـدِّ الجمـاجم مـن عهـد هـود
هـم المخـرجون خـبايا الجـسوم إذا ضـربوا بخـبايا الغمـود

ولما كانت الشجاعة أساس الفضائل فهى كالموهبة أو الطبع لمن تحلّى بها فإبن وهبون ملك القوة والشجاعة فضلاً عن الشعر موضحاً أنَّ سميره السيف والكتاب، فطموحه وشخصيته الأبيّة هيأته لهذا المركز المرموق. بعد انسجام الطموح مع القيم.

---

(١) المصدر نفسه: جـ٢ ص ـ وأنظر نظيره فى ديوان ابن خفاجة الأندلسى: ص٢٢٩.
(٢) الديوان: ص٤٤٦، وانظر ابياته فى الشجاعة ص١١ (متن الديوان) و ص٢٢٦، ٢٣٠، ٣٣٤، ٣١٨، ٣٤٦، ٤٤٦.
(٣) المصدر السابق: ص٨٧ (مقدمة الديوان).

ولـيس نديمـى غـير أبـيض صـارم ... وليس سميرى غير شخص كتابِ[1]

ومـن لم يخـضِّب رُمْحَـهُ فـى عداتـه ... تـساوتْ بـه فـى الحـىّ ذاتُ خـضابِ

ومـن لم يُجلَّ السيفَ مـن تُهْم العدا ... يجلـىَّ بخـزيٍ فـى الحـياةِ وعـابِ

ويبرز الصبر والصمود على مكاره الحرب فى مقدمة الشروط وفى ذلك يقول ابن حمد يس مادحاً المعتمد بن عباد[2]:-

وكلمّـا عَقَـدَ الـرّايات معتـزماً ... حَلّـتْ أياديـه مـن آرائـه عُقَـدا

شـهمُ صـبورُ إذا مـا لقـومُ زاحمـهُ ... مـزاحماً فـى كفـاحٍ ظـنّه أُحُـدا

يَـسهو بعـضبٍ إذا ماهَـزَّ مَـضْرِبَهُ ... يـومَ الـضرّابِ لعينـى سـاهِدٍ رَقـدا

ويقول ابن خفاجة فى اليقين وإحراز النصر به[3]:-

فَعَـنِانُ تِلْـكَ الدَّوْلَـةِ الْغَـرَّاءِ فـى ... تَـدْبير ذَاكَ الفـارس الِمْغَـوارِ

بَطَـلُ جَـرَى الفَلَـكَ المحـيطُ بِسَرْجِهِ ... وَاسْـتَلَّ صـارمَهُ يَـدَ الْمقـدَارِ

صَـحِبَ الْحَسامُ النَّصر صُحْبَةَ غِيْطَةٍ ... فـى كـفٍّ صَـوَّالٍ بـه سَـوَّارِ

ناهيك عن سلامة الرأى (والعقل فى الشجاعة) [4] فى الملماتِ وقد تجلت هذه الصفة عند ابن زيدون[5] وهى من الصفات التى يعتد بها العرب ومثلهم الشاعر محمد بن [6]عمر بن المنذر أبو الوليد (ت٥٠٨ هـ) يقول:-

شـهماً إذا دجـت الخطـوب تـبلّجت ... لعقولـنا الأقمـارُ مـن لألائـه

---

(١) شعر ابن وهبون المرسى: ص٩٥ (سمر صبحى).

(٢)الديوان: ص١٧٠ ـ ١٧١ وانظر نظيره روضة المحاسن وعمدة المحاسن، ديوان الجزار السرقسطى: ص١٢٧ فى الغرض نفسه.

(٣)الديوان: ص٣٧.

(٤) القيم الجمالية فى شعر الأخطل: رسالة ماجستير، ص٤١.

(٥) انظر ابن زيدون ورسائله: ص٤٢٠ ـ ٤٢١ بحث راشيل اربه.

(٦) الحلة السيراء: جـ٢ ص٢١٠ ترجمة ١٤٣.

شِـيُم كأزهـارِ الـربيع وراءهـا هِمـم تحـطُّ الـنجم مـن غلـوائه

٢ ـ بواعثها

وقد يحث الخطيب على الشجاعة بأن يرغّب السامعين فى حصول المحبوب إذا كان شريفا جليلاً كما قال ابن عمار[١] يغرى أهل بلنسية على أبى بكر بن عبد العزيز وبنيه.

خَبِـرْ بلنـسيةً وكانـت جنّة أن قـد تـدلّت فـى سـواء الـنار

جـارُوا بنـى عـبد العزيـز فـإنهم جـرّوا الـيكم أسـوأ الأقـدار

ثـوروا بهـم مـتأولين وقلـدّوا ملكـاً يقـومُ علـى العـدو بـثار

نكث اليمين وحاد عن سنن العلا وقـضى علـى الأقـبال بالادبـار

ومنهم من أثبت شجاعة[٢] فى هجاء الملوك والأمراء كما فعل السميسر فى هجائه لعبد الله بن بلقين حفيد باديس بن حبوس. قال السميسر وحق من حصلنى فى يدك ما قلت شرا فيك وإنما قلت[٣]:-

رأيـتُ آدم فـى نومـى فقلـت لـهُ أبـا البّـرية إنّ الـناس قـد حكمـوا

إنّ البرابـر تَـسل مـنك قـال إذ ن حـواء طالقـة إن كـان مـا زعمـوا

والشجاعة من العوامل الباعثة على الغزو حتى فى الأشهر الحرم (التى حُرّمَ فيها القتال)* قال ابن بقى القرطبى (ت٥٤٢)[٤].

---

(١) انظر ديوان ابن عمار: ص١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) انظر مجلة بحوث جامعة حلب، ص١٣٠ ع ٩ لسنة ١٩٨٦.

(٣) السميسر الالبيرى حياته وشعره: ص٢٩٩ قطعة ٤٥ جمع محمد شهاب: مجلة آداب المستنصرية ع٢٦ لسنة ١٩٩٥، وللمزيد عن الشجاعة انظر ديوان المعتمد بن عباد ص١٠١ ـ ١٠٥ ـ ١١٦ ـ ١٥٠ ـ ١٦٠ ـ ١٨٠، ونظيره فى ديوان ابن الزقاق البلنسى ص٩٥، ١٨٤، ٢٦٦، تحقيق عفيفة محمود ديرانى.

(*) وربما كانت الشجاعة ردا للعدوان والغدر فى الأشهرالحرم.

(٤) ابن بقى حياته وشعره، د. محمد مجيد السعيد: ص١٤٨م ٧ع١ لسنة ١٩٧٨.

أَيْنَ الرّجا والعُلا من حازمٍ يَقِظ يغزو أعاديه فى الأشهر الحرم

وربما كان البغيِ باعثاً على الشجاعة فإن بغت طائفة أو قبيلة، حوربت واستؤصل بغيها بالسيوف، يقول أبو العرب الصقلى(ت٥٠٧)[١].

وإن أغْشَبت بالبغى هامُ قبيلة أسمنا بها بيضاً رقاق المضاربِ

لعمريِ لقد سار الزمان لفخرنا إلى غايةٍ تنأى على كلِّ طالبِ

وقد يكون الباعث على الشجاعة العشق فكثير من العشاق يركبون الأهوال فى طلب المعشوق[٢]. وهنا يحسن بنا أن نعرض لنوع من الشجاعة الأدبية وربما تكون باعثاً من بواعث الشجاعة الحربية ما يظهر منها فى ثوب الضحية بالمنفعة الخاصة بل بالذات أحيانا، وهو دليل قاطع على الطباع النبيلة والأخلاق الفاضلة الكريمة.

وتبرز مهمة الشاعر فى التذكير بماضى الأمة المجيد ووصف سلوك هؤلاء الملوك الذين تمسكوا بالقيم وشهامة أبطال المسلمين وتجسيدهم لأحلام الأمة ومثلها. ومنهم من تفاعل مع الأحداث الدامية فى صقلية. فقد دعاهم فى قصيدته أن ينفضوا النوم عنهم وأن يوجهوا خيولهم نحو المعركة، ضد الروم دفاعا عن الوطن وسلامته.

دعوا النوَم إنى خائفٌ أنْ تَدوسَكمْ دواة[٣]، وأنتم فى الأمانى مع الحُلْم.

فَرُدّوا وجوهَ الخيلِ نحو كريهةٍ مُصرِّحَة فى الروّم بالثّكل واليُتْم

وَصُولوا ببيضٍ فى العَجاج كأنّها يُرُوقُ بضربِ الهام محْمَرَّة السّجْم

---

(١) الحماسة المغربية: جـ١ ص٧٧٧. وترجم له ابن بسام فى الذخيرة: م١ ق٤ ص٣٠١ـ٣٠٨ـ ولم يرد هذان البيتان فيه.

(٢) انظر على سبيل المثال ديوان ابن الزقاق البلنسى ص٤٧، الاعمى التطيلى: ص٨٦.

(*) وربما كانت الشجاعة ردا للعدوان والغدر فى الأشهر الحرم.

(٣) انظر ديوان ابن حمديس الصقلى: ص٤١٦.

أما بواعث الشجاعة المعنوية فيمن بلغ من الرجال والنساء أرقى درجات الإنسانية، هى الشجاعة التى تدعو صاحبها إلى قول الحق والسعى وراءه وتوحى إليه أن يكون عادة أميناً مخالفاً لهوى النفس. فالرجل (إذا قوى ضميره ـ ظهرت عليه معالم الشجاعة)[1]. ولم تكن وقفا على الرجال دون النساء فما أكثر من وقفت منهن مواقف حربية تهيض عزائم الأبطال وخضن أعظم المواقع وحضرن أشد الزحف خطرا، ما بين مقاتلات وخطيبات وشاعرات ومؤديات ومؤدبات صبيان[2]، وكاتبات وقاضيات يتفاضلن (بالتفاضل اللازم للمخلوقات)[3] وعن طريق عزيمتهن ما يثير الإعجاب بشجاعتهن الأدبية، من ذلك ردّ ولاّدة على ابن زيدون فكان أشجع جواب قيل فى مقامه. ناهيك عن[4] مهجة القرطبية.

ولا نعلم فى تاريخ صفحات الاندلسيين أروع وأملأ بالشجاعة الأدبية المتمثلة بالأنسانية من أصحاب الهمم العالية والطبائع الساميّة أشجع من شعراء عصر ملوك الطوائف والمرابطين.

وتحدث الشعراء فى أشعارهم عن شجاعة الفرسان فى الحرب وفى الدفاع والهجوم والاستعداد لكل اعتداء غاشم عليهم، ولا نستطيع تجاوز ميدان الحرب والملوك والامراء الذين مثلوا أسمى فضائل الشجاعة وما فاضت به نفوسهم من النبل ما يملأ النفس جلالا وعظمة. يقول خلف بن هارون القبطنى[5]:-

يَخُـوضُ إلى المْجـد والمَكْـرُمات بَحـارَ الخطُـوبِ وأَهـوالَها
وإنْ ذكـرت للعـلا غايـةٌ ترقّـى إلـيها وأهْـوَى لهـا

---

(١) الخلق الكامل: جـ٢ ص٦٥.
(٢) ابن حزم الاندلسى: طوق الحمامة فى الألفة والالاف: ص٩٥.
(٣) ص١٣٤ حققه وقدم له صلاح الدين القاسمى/ تونس/ دار سلامة.
(٤) المرأة فى الشعر الأندلسى: ص٢٥٢ ـ ٢٥٣/ عصر ملوك الطوائف رسالة مضروبة على الآلة الكاتبة.
(٥) جذوة المقتبس: جـ١ ص٣٢٩ ترجمة (٤٢٦).
(*) خلف بن هارون القطيينى: اديب شاعر، لقى ادريس بن اليمان وغيره.

وكان بعض أمرائهم إذا قصد غزوة عقد لواء بجامع قرطبة ويجعل سيره إلى الغزوة الجامع[1]، وهذا يدل على عمق الإيمان والتقوى اللذين هما أساس الشجاعة وإحراز النصر.

وشعراء ذلك العصر لم يكونوا من عامة الناس فيقطع المؤرخون والنقاد أن يستمعوا لهم ويحكموا على شاكلتهم يتحدثون بها فى غزواتهم ويتغنون بها فى مجالسهم [2]. ويعدُّ الأندلسى (ابن حرب) وهو الشجاع الذى تعود الحرب وألفها[3].

٤ ـ مظاهرها:ـ

إن كثرة الحروب أبان عصر الطوائف والمرابطين وتسجيل الملاحم البطولية التى كانت منبعاً ثّراً لقول الشعر المتميز بالتعبير الصادق والحماسة المتوهجة والأساس المرهف. وكثيرا ما واجه الشاعر المعارك بالبشر والحبور وطلاقة الوجه منبعثاً من الإيمان والعقيدة الراسخة بعدالة القضية ووحدة المصير وإحراز النصر على الأعداء، هذا وقد تهلل وجه المعتمد بن عباد بالطلاقة فى حين تهجم الردى عند صولة الموت وهو من أحرج اللّحظات فى النزال. يقول ابن زيدون[4].

جَذلانُ ـ فى يَوْم الوَغْى ـ مُطَلّقُ ... وَجهاً إلَيْها، والرَّدْى مُتَجَهِّمُ

بَأسٌ كَمَا صَالَ الهِزَبْرُ، إزاءهُ ... جُودُ، كما جاشَ الخِضَمُّ الخَضرِمُ

ومن مظاهرها إذلال الأعداء وتنكيس رؤوسهم فيخرون ساجدين سجود الأذلاء الصاغرين.

تخر رؤوسُ العدى فى الوغَى ... لها سُجّداً، يالَه من سجود[5]

---

(١) انظر مطالع البدور فى منازل السرور : ص١٢٥.

(٢) انظر د. متولى حميد: قضايا أندلسية: ص٣ ـ ٤/ ط١/ ١٩٦٤.

(٣) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب: ص١٦١.

(٤) الديوان: ص٢١٦.

(٥) ديوان ابن حمديس: ص١١٥.

ومن مظاهرها الاهتمام بالخيل وأسمائها وأنواعها وذكر صفاتها ووصف ما تعرضت له من مشاق المعارك ومتاعبها. ومما قيل فى مدح المعتمد بن عباد بعد معركة الزّلاقة[1]:-

خذ فى عزائمك التى تركتهُمُ ... خَبَراً مع الأيام لا يتغيرُ

بالخيل تحت الليل يُسْرَحُ حولها ... فى كلِّ ذابلة سنانُ أزهرُ

وَتلوكُ من فَقْدِ القضيم* شكائما ... تُنْهَى بها أفواهُهَنَّ وتُوْمَرُ

عَرَكَتْ أديم الأرضِ تحت حوافرٍ ... صَخْرُ البلادِ بوطئهنَّ مسخَّرُ

ولعل صور غبار الخيل دلالة واضحة على شراسة الحرب وقوة المعارك وعنوانٌ للبطولة ومظهر من مظاهر الشجاعة وحب القتال وتجشم العناء[2].

يُردّى المدجج، وهو غير مدجنٍ ... كم دارع ارداه رمحُ الحاسر

فى جَحْفَلٍ يَغْشَى الوقائعَ زاحفاً ... بسماءِ أجنحةٍ وأرضٍ حوافرِ

وعجاجة كسحابةٍ مُلْتَفّةٍ ... فوقَ الرؤوس على بورق بواتر

وكأن جُرْدَ الخيلِ تحت حماتها ... عقبان جوّ جُنّحٍ بقساور

وبحثهم عن السيوف الهندية الصقيلة وعوالى الرماح الردينيّة كان هو الآخر مظهرا من مظاهر الشجاعة لما له من كبير أثر فى الفتك بالأعداء والطعن بهم فى ذلك. يقول ابن حمد يس[3]:-

---

(١) المصدر نفسه: ص١٩٦.

(*) القضيم: ما تقضمه الدابة من الشعير وغيره ـ الشكيمة الحديدة المعتوضة فى فم الفرس وجمعها شكائم. انظر لسان العرب مادة (قضم). وانظر فى الغرض ذاته ديوان ابن حمد يس: ص٩٢ قصيدة فى مدح الرشيد عبيد الله بن المعتمد. وانظر ديوان الأعمى التطليلى فى مظاهر الشجاعة (الاهتمام بالخيل).

(٢) ديوان ابن حمد يس: ص٢١٠.

(٣) م ن: ص ١٧٠.

كـأنَّ اجفانَـهُ فـى الحـرب قـد وردت مـع الـدّماء مـن الهـنديّ مـا وردا

لـشدّة الـبأس فـى يمـناهُ ضـربته إن أسكرَ السيفُ منها بالنجيع شدا

وللردينـيّ يَـوْمَ الطعّـنِ عالـيةٌ تلوكُ بين حشا الضرغامةِ الكبدا

ولقد لعب السيف فى يد البطل ادريس بن يحيى أمير غرناطة كما تعلب المخاريق فى أيدى أصحابها قال [1] أبو زيد عبد الرحمن الأشبونى (ت٤٣٤ هـ).

لَعِـبْتُ أشّـيافُهُ عَارِيَـةً كمخاريـقَ بأيـدى اللاعـبين

ولـصوتِ الـرعد زَجْـر وحـنين ولقلبـى زَفَـرَاتُ وأنـين

أما عبد الرحمن البلنونبى فقد ظهرت معالم البطولة واضحة بتطاير هامات اعدائه بعد ان سل حسامه المصقول قائلاً[2]:-

بطل إذا خرط الحُسام تطايرت هامَ العِدى عن صفحة المصقول

وفى وصف الرمح[3] قال الأعمى التطيلى:-

طَـوِيلُ نِجـادِ الـسيفِ مـاض غـراره ألا قَلْـبَهُ أمْـضىَ ويُمْـنَاهُ أَطَـولُ

ولـدنُ مهـزِّ الـرمحِ رحـبُ مجالِـهِ وقـد ضـاقَ ذَرْعُ الموتِ فـيما يُحَمّـل

وهكذا أشاروا إلى بعض السيوف المشهورة التى تقاتل به الشجعان.

والـسابرىِ مـضاعفا والـسمهر ى مـثقفاً والمـشرفى مـشطبا[4]

---

(١) انظر الذخيرة : م٢ ق٢ ص٧٩١. وانظر الدكتور محمد محمد عبد المنعم خفاجة: قصة الأدب فى الأندلس: جـ٢ ص٨.

(٢) الديوان: ص٢٧ وانظر ص٢٣. والذخيرة م٢ ق٣ ص٥٩٠. وديوان ابن الزقاق ص٩٠، والحماسة المغربية: جـ٢ ص١١٩٩ ـ ١٢٠٠ (ذكر القنا) وقول أبو الفضل بن شرف (٥٣٤ هـ) وديوان ابن شهيد ص١١٤.

(٣) الديوان: ص١٢٨.

(٤) شعر ابن اللبانة الدانى جمع وتحقيق الدكتور محمد مجيد السعيد: ص١٥.

(*) المشزب: الضامر من الخيل.

والجيش فى ظل اللواء مؤيد والخيل فى وهج الكريهةِ شُزّبا

وكان لوصف الجيش وكتائبه وسراياه مظهر من مظاهر الشجاعة[1] وصور للبطولة الحيّة التى أبداها العرب فى الأندلس.

يَعْمُر الحُبْ بجيش أرضُهُ من دمِ الأعداءِ حمراءُ الأديم

يقتضى الذِّمْرُ من الذِّمْرِ روحهُ فالذِّمْرِ غريم

وليس شرطاً أن تكون الشجاعة فطرّية على الرغم من أن بعضهم جبل شجاعا على الفطرة[2].

(١) انظر ديوان ابن حمد يس: ص٤٥٠ ـ ٤٥١ وما ذكره فى الجيش والسلاح/ ص١٤٦ ـ ١٥٣ ـ ١٦١ ـ ٢٦٧ ـ ٤٥٠ وانظر صوراً للبطولة والتضحية والفداء فى ديوان ابن دراج ص٧٧ ـ ٧٨. ويتيمة الدهر: جـ٢ ص١٠٨، وديوان ابن عمار، ص٢٠٠ وهناك قصائد كثيرة عززت فيها صور التضحية والفداء منها فى البديع فى الربيع: ص١٤٦ ـ ١٤٨، الذخيرة : م١ ق٢ ص١٥٧، الخريدة: جـ٢ ص ٩٩، الروض المعطار: ص١٤٦ ـ١٤٨، ص٤٩، وازهار الرياض جـ٣ ص١١٩، وديوان ابن حمد يس: ص٣٧٧ ـ ٤٢٦ ـ ٤٢٧، القلائد: جـ١ ص١٩٥.

(٢) انظر ديوان ابن حمد يس: ص٤٤٧.

(الفروسيَّة)

١ـ التعريف بالفروسيّة.

٢ـ الألفاظ الخاصة بالفروسيّة.

التعريف بالفروسية:

الفِراسةُ والفروسة والفروسيّة[1]: وهى الحذق بأمر الخيل وركوبها والثبات عليها والتعرف على أحوالها ـ وهى المعنى الحسى الأول للمعانى المتفرقة.

والفروسيّة مظهر من مظاهر الحياة تنشأ نتيجة عوامل اجتماعية وأخلاقيّة وحربية معينة تتطور وفق أساليب حيوية شاملة، وقد ساعدت على تطوره فطرة عربية سليمة وجدت المثل السامية الحقيقية وهدفها الذى تسعى إليه[2].

فهى نوع من الأخلاق يتميز بها الفرد لتحقيق غاية تتصل به أو بغيره لإيصال الخير إلى الغير بإرادة مخلصة. وهذا فيصل حاسم بين السلوك الأخلاقى وغير الأخلاقى. فالدفاع عن الوطن والدين واجب اجتماعى مسئول عنه كل فرد قادر على الدفاع.

ولعل يوم (الجمعة) الذى بدد الله فيه شمل الطاغية أذِفونس* مثلّت الصيد من الفرسان وفيه قال يوسف بن عبد الصمد مادحا المعتمد بن عباد[3]:-

ذلّـــت لعـــزتك الملـــوك الـــصيدُ ... يـــامَن اذا نقـــصَ الـــزمان يـــزيد

وفـتحت بـابَ الغـربِ يـاابنَ محمـد ... وبلغـــتَ أقـــصاه فـــأينَ تـــرُيدُ

هـــيهات لا يمـــض لحقـــك شـــاهدٌ ... يـــومُ العَـــروبةِ شـــاهدُ مـــشهودُ

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: جـ٤ ص٤٠٥ وتاج العروس جـ٤ ص٣٠٦والمخصص: جـ٢ السفر السادس ص١٣٥.

(٢) الدكتور نورى حمودى القيس: الفروسية فى الشعر الجاهلى: ص٢٥.

(*) اذفنوس: قائد الاسبان فى معركة الزلاقة التى حدثت (٤٧٩ هـ) بين العرب والأسبان.

(٣) الذخيرة: م٢ ق٣ ص٨١٥ ـ ٨١٦.

يــومُ تواصــلت الترائــب والقــنا فــيه وعانقــتِ الأســودَ أســودُ

والــشمسُ مَــرْهاه الجفــونِ كلــيلةٌ والجــوُّ مغبَّــر الــذُرى مــسدودُ

الخــيلُ قــد نكــصت علــى أعقابهــا والــرومُ زرع والــرؤوس حــصيدُ

وكانت القبائل عندما تنشب الحرب تقدم نصيبها من المشاة والفرسان والسلاح والمؤن[1]. ومنهم من حمل نفساً مقدسة مباركة فعند مشاركته للنزال أستطاع أنّ يهزم جيشاً برمته لكونه رجلاً قد جرّب التطاحن[2]:-

لهم كُــلُّ مَيْمــوُنِ النقّيبــةِ بــازِلٍ

كغيلٍ بــأنْ يَسْتْهــزِمَ الجمْــعَ مُفْــرَدا

يَسُرُّكَ فــى الْهَيْجَــا إذا جَرَّلامَــةً

وَيُرضيكَ فى النّادِى إذا اغتَمَّ وارْتَدَى

وقد أفرزت الفروسية رجالاً حاذقين فى أمورها فى ذلك قال أبو بكر احمد الأبيض (ت٥٣٠ هـ)[3].

أصــاخت الخــيْلُ آذانــاً لــصرْختِهِ وارتــاعّ كــلُّ هزبــر عــندما عَطَــسَا

تعلــم الــركضَ أيــامَ المخّــاضِ بــه فما امتطى الخيلَ إلاّ وهو قد فَرْسَا

بعد أن أصبح الأندلسى فى عصر المرابطين من المحتم عليه أن يظلّ متأهباً للحرب لأن الحرب من قوام حياته. وهى منهج أتخذه وسار عليه. هذا ما دعاه الى ارتداء الدروع وإشهار السيوف قال ابن بقى القرطبى(٥٤٢هـ)[4].

---

(١) يوسف أشباح : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين: ص٢٤٤ ترجمة محمد عبد الله عنان.

(٢) ديوان ابن زيدون: ص٤٧٦ وانظر نظيره فى م ن: ص٤٦٦.

(٣) المغرب فى حلى المغرب: ص١٢٨ ترجمة ٤٤٢، الطبعة الثالثة (القاهرة) * كان من فحول شعراء المغرب المذكورين بالسيف فى الشعر والأدب، ذكره ابن دحيّة فى االمطرب. وانظر الخريدة: جـ٢ ص ٦٧٠.

(٤) شعر ابن بقى القرطبى: ص١٣١م ١/ ١٩٧٨.

يـومُ تواصـلت الترائـب والقـنا فـيه وعانقـتِ الأسـودَ أسـودُ

والـشمسُ مَـرْهاه الجفـونِ كلـيلةٌ والجـوُّ مغبَّـر الـذُرى مـسدودُ

الخـيلُ قـد نكـصت علـى أعقابهـا والـرومُ زرع والـرؤوس حـصيدُ

وكانت القبائل عندما تنشب الحرب تقدم نصيبها من المشاة والفرسان والسلاح والمؤن[1]. ومنهم من حمل نفساً مقدسة مباركة فعند مشاركته للنزال أستطاع أنّ يهزم جيشاً برمته لكونه رجلاً قد جرّب التطاحن[2]:-

لهم كُـلُّ مَيْمـونِ النقيبـةِ بـازِلٍ

كغيلٍ بـأنْ يَسْتَهـزِمَ الجمْـعَ مُفْـرَدا

يَسُرُّكَ فـى الْهَيْجَـا إذا جَرَّلامَـةً

وَيْرضيكَ فى النّادِى إذا اغتَمَّ وارْتَدَى

وقد أفرزت الفروسية رجالاً حاذقين فى أمورها فى ذلك قال أبو بكر احمد الأبيض (ت٥٣٠ هـ)[3].

أصـاخت الخـيْلُ آذانـاً لـصرْختِهِ وارتـاعّ كـلُّ هزبـر عـندما عَطَـسَا

تعلـم الـركضَ أيـامَ المخّـاضِ بـه فما امتطى الخيلَ إلاّ وهو قد فَرْسَا

بعد أن أصبح الأندلسى فى عصر المرابطين من المحتم عليه أن يظلّ متأهباً للحرب لأن الحرب من قوام حياته. وهى منهج أتخذه وسار عليه. هذا ما دعاه الى ارتداء الدروع وإشهار السيوف قال ابن بقى القرطبى(٥٤٢هـ)[4].

---

(١) يوسف أشباح : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين: ص٢٤٤ ترجة محمد عبد الله عنان.

(٢) ديوان ابن زيدون: ص٤٧٦ وانظر نظيره فى م ن: ص٤٦٦.

(٣) المغرب فى حلى المغرب: ص١٢٨ ترجة ٤٤٢، الطبعة الثالثة (القاهرة) * كان من فحول شعراء المغرب المذكورين بالسيف فى الشعر والأدب، ذكره ابن دحيّة فى االمطرب. وانظر الخريدة: جـ٢ ص ٦٧٠.

(٤) شعر ابن بقى القرطبى: ص١٣١م ١/ ١٩٧٨.

الفروسية الموروثة فى المجتمع العربى متمثلة بظفرهم. قال أميّة بن عبد[1]العزيز بن أبى الصلت (ت ٥٢٩ هـ).

هِـىَ الَعَـزائِمُ فـى أنـصارها القَـدرُ وهـى الكـتائبُ عـن أشياعها الظَفَـرُ

جـردت للـدين ـ والاسياف مغمـدة سـيفاً تَقّـل بـه الأحـداث والغِـيرُ

بالبيض تسقط فوق البيض أنجمهم والـسمر تحـت ظـلال الـنقع تـشتجر

ولم يقتصر دور الفروسية على ميادين الحرب بل أصبح ضرباً من ضروب الرياضة أيام السلم بتشجيع الخلفاء والملوك فكان (الحذق بأنواع الجندية والنفاذ فى أنواع الفروسية) [2] من مظاهر الرجولة. وكان الخلفاء (يقربون من البارزين فرسانهم أو يبالغون فى (إكرامهم) [3] ومنهم من جمع بين فضيلة الكرم والفروسية التى هى (المثل الأعلى للإنسان فى حياته) [4]. فقال[5]:-

وصـــيدٍ يـــصيدون الفـــوارسَ بالقـــنا

إذا نكَلَ الأبطالُ فى الرّوع أقدموا ص٤٠٩

إذا فـــرّت الأبطـــال كـــرّ، وســـيفُهُ

يُحِـلّ بيمـناه دمَ العلـج محـرُم ص٤١٣

يـــضاعف أن عَـــدَّ الفـــوارس عَـــدَّنا

كـأن الـشجاع الفـرد فيـنا عَرَمـرَمُ ص٤١٤

وكان يشترط على من يريد الانتماء إلى الفتوة أنْ يَتمسك بكلِّ فضيلة ومكرمة

---

(١) انظر ديوان الحكيم امية: ص٨٩. وانظر ابن أبى أصيبعة: عيون الانباء فى طبقات الأطباء: ص٥٠٦

(٢) الاحاطة فى أخبار غرناطة: جـ١ ص٤٦٢.

(٣) ابراهيم محمد الغمام: الخيل والفروسية عند العرب. مجلة العربى ص٩٣عدد ٥٣ لسنة ١٩٦٣.

(٤) سعيد الديوه جى: الفتوة فى الإسلام ص٣٢. المطبعة الكلدانية، الموصل ١٩٤٠.

(٥) ديوان ابن حمديس: ص٤٠٩، ٤١٣، ص٤١٤. (قال يمدح أهل سرقوسة).

ويتجنب كل ما من شأنه أن يحطّ من كرامة الفرد. واتضحت لنا معالم الشعر الفروسى وحدوده التى انتهى اليها الشاعر (مع ما فيه من صفاء الجوهر، وصدق الشعور وفطرة النفس)[١] فشعراء الاندلس كانوا أهل غزوْه وغزوات حروب لذا جاءت الفروسية أوسع باباً واسماها نفسّاً ومثلت حياتهم أصدق تمثيل.

الألفاظ الخاصة بالفروسية:

لقد أعدَّ الخلفاء والملوك الجيش إعداداً منظماً بحيث أصبح قادراً على إدارة شؤون البلاد وحمايتها والذود عن حياضها.

وأكثر الشعراء من الألفاظ الدالة على الجيش والحرب والسلاح فضلاً عمّا استخدموه من الألفاظ العسكرية استخداماً مجازياً. مثل (الجحفل) و (الخميس) و(العسكر)و (الفيلق)[٢]... وذكر ممن يتألف الجيش وهم (الأجناد) [٣] أو (الجنود) وطوائفهم وأوصافهم (وكان ترتيب المعركة يقوم على نظام خماسى ويتقدم الجيش الجند المشاة ووحدات الفرسان الخفيفة يتكون القلب من وحدات الفرسان المرابطية الثقيلة) [٤].واستخدام الشعراء الألفاظ الخاصة بمن يتولى أمر الجيش نحو (الأمير) و(القائد) و (العارض) [٥] الذى يتولى خطة العرض* و(صاحب العسكر) ووحداته العسكرية كالكتائب والكتيبة[٦].

وكثير من أشعار الفارس الأندلسى تبنى على ذكر السلاح[٧]

---

(١) بطرس البستانى: شعر الفروسية: ص١٥.

(٢) صادت حسين كينيج: لغة الشعر الأندلسى فى عصر الخلافة، رسالة دكتوراه، كحلية الآداب الجامعة المستنصرية. باشراف أحمد نصيف الجنابى/ ١٩٨٩/ ص٩٦/ ٢٣٥.

(٣) انظر ديوان ابن عبد ربه: ص١٨١ – ٢١٠ (الأرجوزة).

(٤) لغة الشعر الأندلسى: ص٢٣٥.

(٥) المصدر السابق: ص٩٧.

(*) العرض وظيفة ادارية عسكرية توكل الى متوليها أمور رواتب الجنود واسلحتهم.

(٦) روضة المحاسن وعمدة المحاسن: ديوان الجزار السرقسطى : ص١٠٠.

(٧) يقال لمن يصنع الكمررانات واغمدة السيوف والسكاكين. (الصناع)، انظر السلفى: أخبار وتراجم اندلسية: ص٢١. وانظر فى السلاح شعر ابن وهبون: ص١١٨.

والسيوف[1] والرماح[2] المشرعة للصولات على ظهر الخيل[3]، والسيوف المجردة للنزول والمجالدة والالتحام، ويصف جواده[4]. والدروع[5] والمغافر.. أما الصولة والصارم[6]، الطعنة والطعان[7]، الهيجاء[8]، الوغى[9]. الجيش[10]، المدجّج[11]. ابن حرب. بنى حرب، فارس حرب، فارس الميدان، الحق[12]، اليقين، غناجيج*[13]. وهذه الألفاظ وردت على سبيل المثال لا الحصر وذكرها الشعراء فى قصائدهم ومقطعاتهم بينما هناك أمور تخص أدوات[14] الحرب ونعتها ووصفها فلسنا نحن بصددها الآن. ولعل هذه الأبيات التى قالها ابن[15] الزقاق شملت معظم ألفاظ الفروسية الإسلامية التى لا يعرف الفارس فيها البكاء ولا الجزع محولا كل شئ إلى انتصار.

هـذا جـوادُ أبـى شـجاعٍ مخـبرُ إنَّ الجـوادَ أنقـصٌ عـنه قتـيلا

---

(١) ديوان ابن زيدون: ص٤٦١. الخريدة: ص٣٥ ـ ٣٦. وديوان التطليلى: ص٥٣. وانظر ديوان ابن عمار: ص٢٩٧، وديوان ابن الزقاق: ص١١٧، ديوان ابن حمد يس ص١٤٥.

(٢) انظر ديوان ابن عمار:أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث: ص٥٩ (أطراف الأسنة) ديوان ابن خفاجة: ص٣٥٢.

(٣) ديوان ابن خفاجة: ص٣٤٤ وانظر الألفاظ الفروسية فى المصدر نفسه ص١٧٧، ١٩٦، ٢٠٨، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٨٦، ٢٩٥، ٣٤٤، ٣٤٦.

(٤) ديوان ابن الزقاق: ص٢٤٣.

(٥) انظر ديوان ابن زيدون: ص٤٦١ ـ٤٦٦. وديوان المعتمد بن عباد: ص١٠١.

(٦) الذخيرة: م٢ ق١ ص٩٤٤.

(٧) القلائد: جـ٢ ص٣٥٢، ص٥٣، ٨٣، ٩٩، ص٢٣٠، ص٣٥٢، جـ١ص١٠.

(٨) المغرب فى حلى المغرب: ص٤٤٣ ترجمة ٦٦٣٠ وانظر المطرب من اشعار أهل المغرب: ص١٧١.

(٩) ديوان ابن حمد يس: ص٤٨٤، ص٣٨٥.

(١٠) ديوان ابن الزقاق: ص١١٧، ١٨٤ رانظر ديوان ابن حمد يس، ص١٩٤، ٢٤٧، ٢٦١، ٣٠٠، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٧٤، ٣٧٩، ٣٨٥، ٤٠٩، ٤١٣، ٤١٤، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٨٤، ٤٩٩، ٥٠٨.

(١١) ديوان الأعمى التطيلى: ص٦١، ص ٢٠٠.

(١٢) المصدر نفسه: ص٦١.

(١٣)غناجيج: جمع مفردها غنجوج: وهو الرائع من الخيل.

(١٤) انظر ما جاء عن الفارس والفروسية فى البيان والتبين: جـ١ ص١٧٠ ـ ذيل الآمالى ص٦٩.

(١٥) الديوان: ص٢٤٢، ٢٤٣ وانظر الذخيرة: م١ ق٣ ص٩٠.

ولطالما لبس الدروعَ غلالا ولطالما جرّ الرماح ذيولا

وسرى إلى الغارات وهى كتيبة ملء الفضاء فوارساً وخيولا

ولعل كتاب (حلية الفرسان وشعار الشجعان) لابن هذيل الأندلسى، من أبرز ما كتب فى أدب الفروسية شعرا ونثرا.

(الجهَاد)

أنواع الجهاد

أ- الجهاد بالقول.

ب- الجهاد بالعمل.

ج ـ الجهاد بالسلاح.

الجهاد:ـ

والجِهاد فى الاصطلاح: هو مصدر من الفعل الرباعى جَاْهَدَ يُجاهِدُ جِهَاداً ومجُاهَدة بمعنى قاتَلَ فى سبيل الله[1]. إذن مفهوم[2] الجهاد مرتبط بنشر مبادئ الدين. أو الدفاع عنها، أو فى سبيل الدفاع عن الدين وقيمه ومثله العليا. وهو ضرورة الحياة.

أنواع الجهاد:ـ

الجهاد على ثلاثة أنواع: منها الجهاد بالقول، والجهاد بالعمل، والجهاد بالسلاح.

(أ) **الجهاد بالقول:ـ**

كان للشعر دور بارز فى مواكبة الجهاد. عبر المسيرة الطويلة فى بلاد الأندلس فى الذود عن الإسلام والمسلمين ومن أجل إعلاء كلمة اللهورفع راية الإسلام خفاقة عالية.

ولما كان أفضل الجهاد (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) فلم يتخلف الشعر عن مواكبة الجهاد سواء أكان ايجابيا أم سلبيًا[3]. وورد فى الذخيرة (وقد ندب الله مسلمى عباده إلى الجهاد فى غير ما آية من الكتاب يضيق عن نصها الخطاب ترغيبًا

---

(١) الحج: ٧٨ "وَجَاهِدُوْا فى الله حَقَّ جِهَادِه".

(٢) انظر الدكتور محمد النويهى: من مفاهيم القرآن والسلوك: ص٢٠٨ ـ ٢١٠.

(*) الجهاد لغة انظر الجوهرى: الصحاح (مادة جهد) تحقيق أحمد عبد الغفور. مصر. د.ق. وانظر عن الجهاد العسقلانى: بلوغ المرام فى أدلة الأحكام: ص٢٦٦ ترجمة ١٢٨٤.

(٣) د. محمد سلامة: الأدب العربى فى الأندلس: ص٩١ ـ ١٣٥، الدار العربية للموسوعات وانظر ضحى الاسلام: جـ٣ ص٩٥.

وترهيبًا فوعد المطيعين جزيل ثوابه والعاصين أليم عقابه) [1]. ولا يخفى على أحد تميز الأندلسين عن المشارقة* بالاستنجاد[2] بملوك المسلمين والفزع إلى الأنقياء والصالحين وحفز الهمم واستنهاض العزائم لإنقاذ البلاد من طواغيت الأعداء.

فكانت أولى الكوارث التى نزلت بعرب الأندلس سقوط مدينة (برشتر**) سنة ٤٥٦ هـ بيد (النور ماندبين) إبان عهد الطوائف فكان هذا البحث بمثابة إنذار لحكام الأندلس من مثل آل عباد وآل جهور، تلك الحادثة أثارت شجن الفقيه الزاهد عبد الله بن فرج ابن العسال (ت ٤٨٧)[3]. لشحذ الهمم وطبعت أبياته بطابع الأسى لما تعرض له النساء والأطفال والشيوخ من الأذى.

ولقد رمانا المشركونَ بأسْهُم ... لم تخْطِ ، لكن شأنَها الإصماء[4].

هَتكوا بَخْيلِهُم قصورَ حريمًا ... لم يَبْقَ لا جَيَلُ ولا بَطْحاء

جاسوا خِلال ديارهم فلهم بها ... فى كلّ يوم غارةُ شَعواء

كم موضع غَلِموه لم يُرْحَم به ... طِفلُ ولا شيخُ ولا عذراء

أمَا فى عصر المرابطين فقد نشط المجاهدون مع نظم الأشعار والحديث عن الجهاد وقيل خلتْ الساحة (لرجال السيف والقلم) [5]. كما ازدهر شعر الوقائع

---

(١) الذخيرة: م١/ ق٣ ص١٧٧. ط ليبيا/ تونس.

(٢) أنظر أدب الاستنجاد فى الأندلس: بن يوسف مصطفى، رسالة ماجستير فى اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية ١٩٨٥.

(**) انظر الذخيرة: م١ ق٣ ص١٧٩ ايجاز الحادثة بخير بريشتو وسقوطها وانظر د. احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسى عصر الطوائف والمرابطين ص١٧٨ ـ ١٨٢.

(٣) عمر فروخ: تاريخ الادب العربى: جـ٤ ص٧٠٦ ـ ٧٠٧.

(٤) انظر الترجمة فى المغرب: جـ٢ ص٢١ وانظر الروض المعطار ص:٤٠ والشعر فى تاريخ الأدب العربى جـ٤ : ص٤٠١ * لم تخط : يقصد لم تخطئ (لم تحد عن هدفها).
أصمى: أصاب مقتلاً. البطحاء: الأرض المستوية. الشعواء: المنتشرة (التى تمتد إلى مكان).

(٥) انظر محمد سليمان الهرنى: دولة المرابطين فى عهد على بن يوسف: ص٣٢٨، دراسة سياسية حضارية/ ١٩٨٥.

الحربية ويمثل هذا اللون من الشعر ابن الخصال وابن الصيرفى والأعمى التطيلى الذين جاءت أشعارهم صرخات لهما دوى من الوضع العام وخاصة ما بثه التطيلى فى قصيدته[1]:-

فيا دولةَ الضَيْمْ أَجْميلى أوْ تجافلي ... فقد أَصْبحَتَ تلك العرى والعرائك

ويا قام زيد أعرضٍ أوْ تعارضي ... فَقَدْ حالَ من دون المنى: قال مالك

وهذا ابو عبد الله بن صارة الإشبيلى (ت ٥١٧هـ) كان يحبب لهم الجهاد ويذكرهم بقبائل حمير التى خلعت عذارها على حب الجهاد وليس على حب الحسان. قال[2]:-

للهِ أروع مـن ذوائبَ حميرٍ ... راعَ العداة. فما يُعَرُّ قرارها

ولفت به أرض الجزيرة عَرجه ... خَلَعتْ على حب الجهاد عذارها

وقد خاطب الجزار السرقسطى قومه وحرضهم على الجهاد محببًا لهم الاستشهاد كما أججَ ابن حمديس الصقلى فيهم نور الإيمان ليرسل بهم نجدة اندلسيّة يقول السرقسطي[3]:

مَتَى كَانَتْ دماؤكم تطل ... أَمَا مِنْكمُ بثارٍ مستقلُ

ونِمتُمْ عن طِلاّبِ المَجدِ حَتىّ ... كَأنَّ العَزم فيكُم مضمحلُ

وقد نذر محمد بن عباد بن اسماعيل نفسه للجهاد ساريًا بهمته إلى سوح القتال متبعًا الأوائل قائلاً[4]:-

---

(١) الديوان: ص٩١.

(٢) انظر ترجمته فى بغية الملتمس: جـ٢ ص٤٣٨ ترجمة (٨٩٩) والشعر فى الخريدة: جـ٢ ق٤ ص٢٧٢.

(٣) الديوان: ص١٨٥.

(٤) انظر ديوان المعتمد بن عباد: ص٢٨٦ تحقيق رضا السويس وانظر نظيره فى الاحاطة فى أخبار غرناطة: جـ٢ ص١٠٨.

أَجَلـــى تَأخُّـــرَ لم يَكُـــنْ يهَـــواىَ دُلّـــىَ والخُـــشوعُ

مَـــا ســـرتُ قـــط إلى القِـــتَـ لِ وكـــان مـــن أملـــى الـــرُّجُوعُ

شِـــيَمُ الألى أنامِـــنهم والأصـــلُ تتـــبعه الفـــروعُ

وقد شحذت الهمم بعد نكبة بريشتر للتطوع للقتال فكتب الباجى (ت ٥٠٢ هـ) إلى المعتضد بن عباد قائلاً[١]:-

أعـباد هـل الـرزء والقـوم هُجَّـعُ علـى حالـه مـن مـثلها يـتوقع

خلـق فراعـى مـن كـتابك سـاعة وإن طال، فالموصوف للطول موضع

ويقول الدكتور منجد مصطفى تكتمل[٢] صورة الجهاد فى القرن الخامس الهجرى لدى ابن دراج القسطلى وابن وهبون وابن حمديس[٣]:-

فـى جهـادٍ قَـرَنَ الله بـهِ عنده الزّلفى إلى حُسنْ المآب

وهكذا جاء جهاد القول لاستفزاز النخوة الإسلامية والعاطفة الدينية ليهئ للجهاد إنقاذ البلاد من الطغيان والظلم والعصيان.

(ب) الجهاد بالعمل:

أهل الأندلس "سُباق حَلْبة الجهاد"[٤] فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وَإذا أَقمتم الجهاد جلبتم إلى حسناتكم عملاً غريباً وَاستأنفتم سعياً مِنَ الله قريباً"[٥]. وما ترك قوم الجهاد إلاّ عَمَّهم الله تعالى بعذاب. لذا كان الجهاد متواصلاً

---

(١) انظر القاضى عياض: ترتيب المدارك: جـ٢ ـ ٤ ص٨٢٥.

(٢) البحر فى شعر الأندلس والمغرب فى عصر الطوائف والمرابطين ص٣٦ ـ ٤٠ حوليات كلية الآداب/ جامعة الكويت/ ١٩٨٦.

(٣) انظر ديوان ابن حمد يس: ص٦٥.

(٤) الحلل السندسية: جـ١ ص٢٢٥.

(٥) منصور على ناصيف: الجامع لأصول التاج فى أحاديث الرسول وعليه غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول: جـ٥ ص٣١/ دار احياء الكتب العربية عيسى الحلبى.

على حد تعبير عبد الحميد النرجس فقد طالبَ براحة الخيل والمهند بعد عناد الجهاد قائلا[1]:

أرِحْ متن المهند والجواد ... فقد تعبا بجدِّك فى الجهاد

وفى جهاد العمل قال أبو بكر بن سوار[2]:

فـى كـلّ عـامٍ غـزوةٌ مـبرورةٌ ... تُـرْدِى عديـد الـروم أو تُغْنـيه

تـصلُ الجهـادَ إلى الجهـاد مّـوفَقاً ... حَـتّم القـضاء بكـلّ مـا تقـضيهِ

ويبدو جهاد العمل عند أبى رشيق القيروانى (ت ٤٦٣ هـ) الحج الذى هو أحد ألوان الجهاد لتوفيقه بين إثابة الأجر ونيل مغانم الدنيا يقول[3]:

ورحت بحجٍ كالجهاد لأنّنى ... جَمَعْتُ به ما بينَ أجْرٍ وَمَغْنم

ومنهم من حرّض على جهاد العمل والنهوض به لإزالة الظلم والضير والعار والإطاحة بالبرابرة الذين أفسدوا حال الرعيّة يقول الأمير عبد الرحمن محمد[4] بن عبد الملك (الذى لقب نفسه بالمرتضى)[5]:-

قَـدْ بَلـغ فيـنا، بـنا، ... مـا أُفـسد الأَحـوال والـنظُما

كالـسهم للطائـر، لـولا الـذى ... فـيه مـن الـريش لمـا أُصْـمى

قومـوا بـنا فـى شـأنهم قـومه ... تـزبل عـنّا العـارَ والـرغما

أمّـا بهـا نَملـكُ أولا نـرى ... مـا يـرجعُ الطـرفُ بـه أعمـى

---

(١) الخريدة: جـ٢ ص٤ تحقيق على عبد العظيم.

(٢) الذخيرة: م٢ ق٢ ص٨٣١ من شعراء المعتمد بن عباد.

(٣) الديوان: ص١٨٠.

(٤) انظر الذخيرة: م١ ق١ ص٤٥٣ وما بعدها.

(٥) انظر الدكتور أ.رنيكل: مختارات من الشعر الأندلسى: ص٤٨، دار العلم للملايين بيروت/ ط١/ ١٩٤٩. (*) حكم الأمير فى عصر الطوائف.

والأدب العربى ملئ بالحث على السعى فى مناكب الأرض لتحصيل الرزق والإقدام فى المهمات العظيمة ومنهم من آثر الانشغال فى الجهاد وكان شغله الشاغل ضد الخصوم والأعداء وتبرز هذه المآثر فى قصيدة القيروانى الذى مدح بها أحمد بن سليمان بن هوْد حاكم سرقسطة وفيها يقول[1]:

فآثـــرت العـــوالى فـــى المعـــالى وآثـــرت الـــصلادم فـــى الـــصلاد

كـــأن ســـيوفك الأقـــدار تجـــرى بمـــا شـــاء الالـــهُ علـــى العـــباد

تـــشاغلت الملـــوك بمـــن دهاهـــا وشـــغلك فـــى جهاتـــك بالجهـــاد

وقال أبو بكر بن الوليد الطرطوشى فى الذين جعلوا صالح الاعمال مستقرا لهم:-

إنّ لله عـــــــباداً فطـــــــنا طلقـــوا الدنـــيا وخافـــوا الفِتَـــتا

فكـــرّوا فـــيها فلمـــا عَلِمـــوا أنهـــا ليـــست لحـــىّ وطـــنا

جعلـــوها لُجّـــة واتخـــذوا صـــالح الأعمـــال فـــيها سُـــفُنا

كما اتضح فى شعرهم الجهاد فى سبيل الله، وابتغاء مرضاته والفوز بجناته.

جـ) الجهاد بالسلاح:-

اتخاذ العدّة والقوة من المثل الإسلاميّة التى دعا إليها الدين الحنيف جميع المسلمين ليكونوا قادرين على الدفاع عن العرض والشرف والمال. ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

---

(١) انظر ابا الحسن القيروانى: ديوان المتفرقات ص١١٧.

(*) احمد بن هود الملقب بالمقتدر حكم سرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ). وكان أشد اخوته اطماعاً وانشطتهم إلى انتزاع ما بأيدهم. انظر دول الطوائف: ص٢٦٢، ونظيره فى ديوان ابن الزقاق البلنسى: ص٢٦٧.

(٢) الانفال: ٦٠.

وقد عرض الشعر الأندلسى لهذا اللّون من الجهاد وتطرق اليه شعراؤهم ومنهم أبو عبيد الله البكرى (ت ٤٨٧ هـ). وساق له ابن بسام بضعة أبيات من المعتمد عندما أجاز البحر مستجيراً بأمير المسلمين وناصر الدين قائلاً[١].

يهون علينا مركب الفلك أن يرى ... محيّا العلا لما نبا مركب الجُرْدِ

فجرنا أجاج البحر نبغى زلاله ... وذقنا جنى الشريان نبغى جنى الشهدِ

يذكرنا ذاك العبابُ إذا طمى ... ندى كفّك الهامى على القرب والبعد

لقد خص الله الأندلس بهذه المرتبة التى تضارع فيها ما أعده الله لعباده من الجنان يوم القيامة لكونها بيئة جهاد ومقارعة أعداء... هذا ما نراه فى أشعار ابن خفاجة الأندلسى[٢].

ويزخر ديوان ابن حمد يس بشعر الحث على الجهاد وحمل السلاح دفاعا عن الأندلس وحدودها وعزة أهلها[٣] وفى الجهاد بالسلاح قال ابن زيدون[٤] يحض المعتمد على قتل الأعداءُ.

يَاأَيُّهـا المُلـكُ العَلَـى الأَعظَـمُ ... اقْطـعُ وَريـد كُـلّ بـاغ يَنـئِمُ

وَاحْسِمْ بِسَيْفِكَ داءَ كُـلّ مُـنَافِقٍ ... يُبْدى الْجمِيلَ وَضدَّ ذلكِ يكَتَمُ

وهكذا اندفع الشاعر* نحو الجهاد بدافع الإسلام، فقد مثّل قضّية وتجربة، لا لكونه مسلماً بل لكونِ أرضهِ دنسها الطامعون فمثلت قصائده روح الإباء والاستنفار والحض على الجهاد وكانت أمنيته حلول منيته لأن جهاد كان لتحقيق قيم سامية ومثل عالية.

---

(١) الذخيرة ق٢ م١ ص٢٣٨.

(٢) انظر الديوان : ص٢٥١ ـ ٢٥٢، وص ٣٥٢.

(٣) انظر الديوان: ص٥٢، ١١٦، ٢٥٦، ٤١٦، ٤١٧، وانظر واقعة الزلاقة د. مصطفى بهجت: مجلة أداب المستنصرية: ع٩/ ١٩٨٤.

(٤) الديوان: ص٣٠٦.

(*) انظر الرسائل فى تفضيل الجهاد على الحج (النفح: جـ١ ص١٨٦ ـ ١٩٠).

(اقتحام الأهوال)

التعريف بـ(اقتحام الأهوال)

هو جهد عالٍ يتوخى تحقيق غاية أو مصير الإنسان فى الأرض بأن يسعى فى هذه الحياة إلى التكامل فتبدو قيمة اقتحام الأهوال مثاليّة واقعيّة عقليّة. وطبيعيّة معاً، وتظهر فيها العفوّية والسذاجة التى تستدل عليها ظواهر خاصة بها مثل الارتكاس والغريزة والعواطف الهوجاء[1].

ويتطلب من مقتحم الأهوال نوع من شجاعة الفعل. متخطياً شجاعة القول متجنباً الاستكانة والذل عازماً جازما ركوب الصعاب.

وربما يتبادر إلى الذهن أن اقتحام الأهوال خلق بعيد عن الحضارة المثالية والمدنّية. لكن هذا ينبغى أن يقاس بما تحققه القيمة من منفعة وخير. وقد لا تقتصر على نفسه بل تتعدى إلى المجتمع أيضاً.

خاض الأندلسيون غمار حروب طاحنة فأكثر الشعراء من الوصف خصوصاً وصف السفن والأساطيل الحربية. يقول ابن الحداد فى حركة السفينة وهى تخوض معركة حربية مظفرة وكانت من نوع الحراقات التى تقذف اللهب[2].

هـامَ صـرّف الـرّدى بهـام الأعـادى ... إن سَـمت نحَـوهُمُ لهـا أجـيادُ

حمّـم فـوقها مـن البـيض نـارُ ... كُـلّ مَـنْ أُرسـلت علـيه رمـادُ

ويبدو أن المعتمد بن [3]عباد قد اقتحم أهوال السلم والحرب وتمنى أن يذوق طعمها الأعداء.

---

(١) انظر الدكتور عادل العوا: دراسات أخلاقية، جامعة دمشق، ص١٠٥ ـ ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣.

(٢) انظر شعر ابن الحداد: ص٥٢.

(٣) الديوان: ص٩٥، طبعة مغايرة، رضا السويس.

يالـــيت حـــرْبا ذاق الأعـــادى طَعْمَـــين مِـــنَّا وَسُـــمَّا؟

هـــذا إذا مـــا ناشـــبوه حَـــرْباً وَذا إذا اســـتوهبوه ســـلِما؟

وعند المنازلة والاقتحام واشتباك الجنود والتحام الأجسام المقطعة الرؤوس يقف ابن جاخ اليطليوس (ت ٤٨٠ هـ) واصفاً تأجج نار الحرب مادحاً المعتمد بن عباد قائلا[١]:-

مَلِـكُ إذا أُضـرِمَتْ نـار الوغـى وتلاقَـت الأجـنادُ بالأَجـنادِ

فتَـرى الجُسومَ بـلا رؤوس تَنْثَنـى، وتـرى الـرؤوسَ بـلا أجـسادِ

ومنهم من أَلجأته الضرورة لركوب البحر على الرغم من مخاطرة لكنّ للضرورة أحكام كما يقال[٢]. وقد دلل المنصور بن أبى عامر على علو الهمة ومضاء العزيمة فى اقتحام الأهوال حين قال مفتخراً[٣].

رَمَـيْتُ بـنفس هـولَ كـلّ عظـيمة وخاطَـرْتُ والحـرُّ الكـريم يخاطـرُ

فـسُدْتُ بنفـسى أَهـل كـلّ سـيادة وفاخَـرْتُ حتـى لم أجـد مـن أفاخـرُ

ومثلما اقتحموا المعارك البحرية التى جاءت سجالاً بين أسطولين كبيرين. خاضوا[٤]المعارك البّرية ذاكرين تدمير المدن الذى كثر قول الشعراء الأندلسيين فيها نظراً لكثرة الحروب التى خاضها الحكام.

---

(١) تاريخ الأدب العربى: جـ٤ ص٦٥٤. وردت له ترجمة فى جذوة المقتبس: جـ٢ ص٦٤٠ ترجمة (٩٦٤). وبقية الملتمس: جـ٢ ص٧١٨ ترجمة (٥٦٩) ولم يرد فيها الشعر.

(٢) النفح: جـ٤ ص٢٧١.

(٣) النفح: جـ١ ص٤٠٠. وانظر أحمد ملا فريح وعبد الجليل خليفة: الاكيد الأندلسى: ص١٦ ط/ ١٩٤١.

(٤) انظر مصطفى الشكعة: الادب الأسرائيلى موضوعاته وفنونه: ص٤٨٤، دار العلم للملايين، بيروت.

ومنهم من ارتقت نفسه صعاب الأمور مقتحماً خطوبها لنيل مكرمات المجد كما قال خلف بن هارون القطينى[1]:

يَخُـــوضُ إلى المجـــدِ والمَكـــرمَا ت بحـــارَ الخُطـــوب وأهـــوالَها
وإن ذُكـــرت للعُلـــى غايـــة ترقّـــى إلـــيها وأهْـــوى لهـــا

وهذا أبو عبيد البكرى[2](ت٤٨٩ هـ) نجده صابراً على أهوال البحر وأجاجة منتظراً منه الزلال والشهد.

بينما وصف إبن وهبون المرسى تجحفل الأسود الذين اتجهوا فى خيلاء لقتحام الأهوال البرّية قائلا[3]:-

جـــيش فوارسُـــه بـــيض كأنّـــصله وخـــيله كالقـــنا عَـــسَالةُ ذُبْـــل
يمشى على الأرضِ منهم كُلّ ذى مَرَحٍ فأنمـــا التَـــيهُ فـــى أعطافـــه كـــسَلُ

فى حين اثنى ابن زيدون على بنى عباد فى اقتحام الأهوال مع إشراقة الوجه ورحابة الصدر[4].

وَلَمّـا قَـدمْتَ الجيشِ بالأمس أشرقَتْ الـــيكَ مـــن الآمـــال آفاقُهـــا الغـــبرُ
أَلَسْتَ الـذى إنّ ضَـاقَ ذَرْعُ بحَـادِثٍ تَـبُلّجَ مـنهُ الـوَجْهُ واتـسع الـصَّدْرُ

أمّا أبو إسحاق الإلبيرى[5] فقد عبّر عن أهوال عذاب القبر وما يلقاه الانسان بعد الرحيل.

---

(١) انظر بغية الملتمس: جـ١ ص٣٦٠ ترجمة ٧٢٢.
(٢) انظر بحث الدكتور مصطفى بهجت: البحر فى الشعر الأندلسى ص٤٧٨.
(٣) انظر شعر ابن وهبون المرسى: ص٥٠.
(*) خلق بن هارون القطينى: أديب شاعر. نقب ادريس بن اليمان وغيره من الشعراء.
(٤) انظر ديوان ابن زيدون: ص٥٧٢ ـ ٥٧٣.
(٥) ديوان الإلبيرى: ص٤١، تحقيق محمد رضوان الداية.

وإذا أتـــيْتَ قـــبورَهُم فاســـألهُمُ عَمّـــا لقـــوا فـــيها مـــن الأَهـــوالِ

فـــسيخبرونَك إنْ فهِمْـــتَ بحـــالهم بعـــــبارةٍ كالوحـــــى لا بمقـــــالِ

وهكذا دفعتهم الشِّيم والفضائل إلى اقتحام الأهوال وخوض المعارك بدهاء وبراعة فى البر والبحر وازناً الفضائل فى ميزان الإسلام لتحقيق آمال وطموحات المجتمع تارة، واستنهاض الهمم وتحقيق الأمانى الذاتية تارة أخرى.

وقد أعطى صورة واضحة لاشتداد الوطيس واصفاً جحافل الجيش مؤمنا بنصرة القيم مع الحفاظ على روح الشجاعة والصبر، بعد ركوبه الأهوال كل مركب وتجشعه صعاب الأمور.

((العفو عند المقدرة))

١ - العفو فى اللّغة.

٢ - معانى العفو فى المجتمع الأندلسى.

أ- العفو عن المسئ.

ب ـ الصفح عن الزلاّت.

العفو فى اللغة:ـ

الصفح وترك عقوبة المستحق[١]. قال تعالى "وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عن النّاسِ"[٢].

وعند المال ما يفضل عن النفقة، ويقال: أعطاه عفو ماله يعنى أعطاه بغير مسألة. وعفا عن ذنبه أى تركه ولم يعاقبه[٣].

والعفو فى الاصطلاح: جاء على المعانى اللغوية السابقة فقد استعمل القرآن الكريم لفظة (العفو) بمعنى الفضل فى المال فى الصدقة. قال تعالى "وَيَسألونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ قُلِ العَفو"(٤) بمعنى الفضل من أموالهم والزيادة.

ومنها العفو عن هفوة الإخوان فى النَّفس والمال دون أمور الدين والسنة[٥]. فالعفو عفو عن الهفوات صغائرها وكبائرها. والمسامحة فى الحقوق سواء أكانت حقوق أحوال أو حقوق أموال، وقد يتنازل صاحب الحق من طلب المعاقبة بعفو عن المعتدى[٦].

معانى العفو فى المجتمع الأندلسى

خرجت معانى العفو فى المجتمع الأندلسى إلى ثلاثة معان هى:-

أ) العفو عن المسئ. ب) الصفح عن الزّلات. جـ) مقابلة السيئة بالحسنة.

---

(١) الفيروز آبادى: القاموس المحيط. مادة (عفو).

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) ابن منظور: لسان العرب: مادة (عفو) دار صادر، بيروت ١٩٥٢.

(٤) البقرة: ٢١٩.

(٥) انظر أبا البركات الغزنى: آداب العشرة وذكر الصحبة: ص٤٨، ص٥٦.

(٦) أنوار المظفر: التربية الاخلاقية فى القرآن الكريم: ص٢١٠ ـ ٢١٤، رسالة ماجستير كلية الشريعة/ ١٩٨٦.

والمجتمع الأندلسى مجتمع له قدرات متفاوتة ومعايير أخلاقّية متمثلة بالإنسانية. فلابَّد أن يجد فى رحاب الفضائل الأخلاقية صدى لقضاياه دفاعاً عن الحق وانتصاراً لمبادئ العدالة، التى تمثلت بقيمة العفو عند المقدرة وكانت جزءاً من عاداتهم وأخلاقهم وثقافتهم فجاء ذلك فى أشعارهم وجرى على نحو التفكير الذى كان مألوفاً عندهم، وهذا يدل على علو نَفس لا نظيرَ له فى عصرهم. وكان من (أخلاق الكرام التأنى والعفو عند المقدرة) [1].

فقد تحيرت الجارية (أنس القلوب) بأمرها بعد أن أذنبت. لكنها تيقنت من صفح سيدها لذا قال على لسانها أبو المغيرة بن حزم (ت ٤٣٨)[2] شاكياً حالها.

أذنبتُ ذنباً عظيماً ... فكيفَ منهُ اعتذارى؟

واللّهُ قدَّرَ هذا ... ولم يكن باختيارى

والعَفْو أحْسن شئ ... يَكونُ عِندَ اقتدارِ

وقد وجد ابن وهبون صواب العفو عند الآسر وبعده عن الخل حين قال[3]:-

إذا أسَرتُم فما فى أسركم قَنَطُ ... وإن عفوتم فما فى عفوكم خَلَلُ

وكثيراً ما وردت أشعار تحكى قصصاً عن العفو عند المقدرة اتضحت جوانبها فى أبيات المعتمد بن عباد فى الصفح والعفو منها[4]:-

وذُبْتُ إلاّ ذماءً فى يُمسكنى ... أنى عَهدْتُك تعفو حيَن تقتدرُ

لمْ يأتِ عبدُك ذنباً يستحق به ... عُتْبى، وَهَا هُو قد ناداكَ يعْتَذرُ

---

(١) أنظر مذكرات الأمير عبد الله بِربِ ص١٣٨.

(٢) النفح: جـ١ ص٦١٨.

(٣) انظر الذخيرة: م١ ق٢ ص٤٩٢وانظر ابن وهبون الأندلسى: صلاح خالص مستلة من مجلة كلية الآداب ع١٢ : ١٩٦٩.

(٤) الديوان: ص٢١٠ تحقيق رضا السويس.. وانظر نظيره فى أزهار الرياض فى أخبار عياض: جـ٣ ص ١٦٣، وديوان الالبيرى: ص٣٩.

وكان العفو عند بعضهم شيما أصيلة وقيماً راسخة وقد ادعى أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى (ت ٤٦٣ هـ) بأن فضيلة العفو حقيقة واضحة وليست بدعة عند المعتضد لكرم أخلاقه وسمو شيمته قائلا[١]:-

وتَعْطِفُـك المكـارُم نَحـو أَصْـلٍ ... دعـاكم راغـباً مـن خيْـر فـرع

فـإن جُـدْتُم بـه مـن بعـد عَفـوٍ ... فلـيس الفـضل عـندكمُ بـبدع

وأفضل العفو ما يكون فى أوقات الحرج والشدة. وبعد استنهاض الهمم فقد يَحصل السائل على ما تمناه مجسداً ذلك عند أبى محمد عبد الله بن يمن الدولة بن قاسم[٢]:

فَهْـدٍ إذا استنهضتَـهُ لملمّةٍ ... أعطاك عَفواً عَدْوه ما تسألُ

أمّا الإلبيرى التجبى فقد كان أشبه بالصادى وقد شفى غليله السراب لولا طمعه فى عفو سيده قائلا[٣]:

لَوْلاَ رَجاءُ العَفْوِ كنتُ كناقِعٍ ... بَرْحَ الغليلِ برشْف لَمْع آلالِ

وبالدافع نفسه بعث الفهرى المعروف بالاحدب (ت ٥١٥ هـ) سلاماً معطراً بعرف المهل وشذا الورد للذى تفرد بعفوه[٤].

أ ـ العفو عن المسئ:ـ

تتساوق قيمة العفو مع أهواء النفس التقيّة وتتفق مع ما جاء فى تنزيله الحكيم يقول أبو الفضل بن عياض محمد بن وليد المعافرى (ت ٤٨٤ هـ)[٥]:

---

(١) المغرب فى حلى المغرب: ص٤٠٨ ترجمة ٦٠٧ تحقيق شوقى ضيف.

(٢) قلائد العقيان: جـ٢ ص٣٩٤.

(٣) الديوان: ص٣٩/ الداية.

(*) الغليل: العطش أو شدته. والآل: السراب.

(٤) قلائد العقيان: جـ٢ ص٣٢٧.

(٥) الصلة لابن بشكوال: جـ٣ ص٨٧٣، ترجمة: ١٣٣٤.

يـامَنْ عَـدَا ثـم اعـتدى ثـم اقْتَـرف ثـم ارْعَـوى ثـم انْتَهـى ثـم اعْتَـرَفْ

أبْـشِرْ بقـوْل اللهِ فـى تَنْـزِيله أنْ يَنْـتَهُوا يُغْفَـر لهـم مـا قـدْ سَـلَفْ

ورّسّخ بعضهم قيمة العفو حيث اعتاد على أنْ يُجبر الكسير يعفو عن المسئ ومنهم ابن زيدون[1]:

وَقدِما أَقْلتَ المسُئَ العثارَ وَأَحْسَنتَ بالصَّفح عمَّا اجْتَرَمْ

وكثيراً ما طمع المسئ بعفو المجنى عليه لشيوع هذه الفضيلة بينهم وربما يطمع فى العفو عند رمضان مقترف الإساءة فى شعبان كما ظن أبو الحسن على بن محمد بن اليسع
(ت ٤٩٣ هـ)[2]:

وإن اسـأتُ، فـاينَ عَفـوَ مُجْمـلا هَبنـى عَـصيْت اللّـهَ فـى شـعبانِ

لـو زرتنـى والآن تحمَـدُ زَوَرتـى كـنت الهـلالَ أتـى بـلا رمـضان

وعبّر ابن عمار فى استعطاف المعتمد بن عباد عن سمو الأخلاق ورقىّ الأذواق ناسجاً العفو مع التسامح على منوال مغفرة الله وعفوه قائلا[3].

سـجاياكَ إن عافـيت أنـدى وأسمـح وَعُـذْرِكَ إنْ عَاقَبْتَ أجلـى وأَوضـحُ

وإن كـان بـين الخطـتين فريـسَةٌ فأنـت إلى الأدنـى مـن الله أجـنحُ

حنانيك فى أخذى برأيك لا تُطِمعْ عـداى ولـو أثـنوا علـىَّ وأفـصحوا

---

(١) الديوان: ص٤١٦. * أقلت حسن العثار: قال عثرته: أنهضه من كبوته أوصفح عن زلته، اجترم واجرم اذنب.

(٢) الحلة السيراء: جـ٢ ص ١٧٤ تحقيق د. حسين مؤنس وانظر نظيره عند ابن وهبون: مستلة من مجلة كلية الآداب عدد ١٢/ ١٩٦٩، مطبعة بغداد ص٧٠ . د.صلاح خالص ونظيره فى شعر ابن السيد البطليوسى: ص١٠٠ع١ م٦/ ٧٧ المورد.

(٣) ديوان محمد بن عمار الأندلسى: ص٣١٩.

وقد ركب المعتمد فى بعض الأيام قاصداً الجامع والوزير ابن عمار يسايره فسمع أذان المؤذن فقال المعتمد بن عباد: هذا المؤذن قد بَدَا بأذانهُ.

فأجابه ابن عمار: يرجو ذلك العفو من رحمانه[1].

المعتمد: طُوبى له من شاهد بحقيقة.

ابن عمار: إن كان عقد ضميره كَلِسانهْ.

وقد صفحَ المعتمد عما بدر من ابن عمار من سَيئات وكتب إليه قائلاً[2].

تقدّم إلى ما اعتدْت عْندى من الرّحب

وَرِدْ تلْقك العُتبى حجاباً مِنَ العُتْب

متى تلقنى تلْقَ الذى قد بَلَوتَه

صَفوحاً عن الجانى، رؤوفا على الصَحْبِ

ومن المتعارف عليه أن [3]الإقدام على العفو خير من الندم على العقوبة) وقد تيقن أبو الصلت أمية بن عبد العزيز (٥٢٩ هـ) بتغيير الحال فلابدّ من النعيم والسرور معتقداً ذلك فى قوله:-

فإن أكُ مجزْياً بذنبى فإننى ... بحرّ عذاب المذنبين جديرُ[4]

وإن يك – عفو ثم عنى ورحمة ... فثمَّ نعيمُ وسَرورُ

ويتضح من بيت ابن زيدون بأن الأمير أرحب صدرا وأوسع عفوا من أن يسيطر عليه الحمق فيدفعه إلى التعارى فى العقاب بعد اعتراف المسئ بالذنب[5].

إذا عثر الجانى عقا عقوقا در ... علا قدره عن أن يلج به حقد

---

(١) م ن: ص ٢٣٢، وانظر ديوان المعتمد ص ٢٤١.

(٢) ديوان المعتمد: ٥٢ غير رضا السويس ويالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسى، ص٩٢.

(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس:ص٣٧٠.

(٤) الديوان: ٨٧ إختلاف رواية (بشر، عقاب)، وفى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء: ص٥٠٤ منشورات دار مكتبة الحياة، تحق نزار رضا/ ط بلا.

(٥) ديوان ابن زيدون: ص٣٦٠ وانظر نظيره فى ص٣٧٦. وديوان المعتمد ص٢٠٧.

ب) الصفح عن الزلات:-

وكثر العفو عن هفوات الأخوان فى النفس والمال دون أمور الدين والسنة لقوله تعالى ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾[1] وقد نسج ابن عمار على منوال كبار النفوس، فى سجيّة الصفح عن الزلات والتسامح وأسهَم فى السعى لمرضاة الأصحاب فى غفران الذنوب والرأفة والرحمة يقول[2]:-

سأوليكَ منى ما عهدت من الرضى وأصفح عما كان إن كان من ذنبِ

وقد ظهرت بجلاء فى قول ابن بسام (فالعفو أقرب للتقوى والصفح أدنى إلى الزلفى ولمقيل العثراتِ عند الله جزاء الحسنى)[3]. فى ذلك قال: محمد بن عمر أبو الوليد (٥٠٨ هـ)[4].

وَمَنْ ذَا الذّى يَسْمُوُ سُموّكَ للعُلاْ ويعفو عن الزّلاتِ وَهْوَ قَدِيرُ

ولما كان العفو نوعاً من تهذيب الضمير والخلق وتوجيه السلوك فقد يقع فى الزلل ذوو العقول الجبارة معترفاً بذلك يزيد بن محمد الراضى أبو خالد (ت ٤٨٤ هـ)[5].

فإن كنت ذا ذنب فحسبى عفوكم وقلبى ما زال الرجالُ ذود العقلِ

وقد كتب أبو مروان عبد الملك بن أدريس الجزيرى (ويقال أن المنصور سجنه فى مطبق الزاهرة مدة، فاستعطفه فى الرسائل والأشعار بما أثمر تسريحه؛ فكتب إليه[6]، فسرَّ المنصور بذلك وأعاده إلى حاله وأطلق له ما اعتقد. وكثيراً ما قابل الملوك هِفوات المذنبين وعثراتهم بالصفح والعطاء قال ابن زيدون)[7]:-

---

(١) النور: ٢٢ ـ وانظر آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة: ص٤٨.
(٢) ديوان ابن عمار: ص٢٨٠.
(٣) الذخيرة: ق٣ م١ ص٢٠٨.
(٤) الحلة السيراء: جـ٢ ص٢١٠ ترجمة ١٤٣.
(٥) الحلة السيراء: جـ٢ ص٧٣ ترجمة (١٢٢) وانظر نظيره م ن: جـ٢ ص٩٤ ترجمة ١٢٧، والمطرب من أشعار أهل المغرب: ص٤٠، ص٨٣، ص٨٦.
(٦) انظر الديوان: ص٣٧٦ وانظر نظيره فى أعتاب الكتاب: ص١٩٦.
(٧) ديوان ابن زيدون: ص

إذا عَثَرَ الجانى عفًا عَفْو حافظٍ يُنْعَمى لها فى المذنبين ذِناب

وقد قيل: (تناس مساوئ الإخوان يدم لك ودهم)[1] لذا طلب ابن الحداد الوادى آش (ت ٤٨٠ هـ) الصفح عن زلل الأخوة.

سامح أخاكَ إذا أتاكَ بزلة فخلوصُ شئ مثلما يتمكن[2]

فى كل شئٍ آفة موجودةُ إنّ السراج على سناه يدخن

وروى أبو أسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيى الإليبرى الغرناطى الصفح عن زلل العظيم شيمة العظماء وإذا عوقب فهو أهل للعقاب لكنه كله أمل فى العفو عن الزلل.

فإنْ تَعاقبْ فأهلُ للعقابَ وإنْ تَغْفِر فَعَفْوكَ مَأْمُولُ[3] وَمَنْتَظَرُ

إنَّ العَظِيم إذا لَمْ يَعْفُ مُقتَدِراً عَن العَظيم فَمَنْ يَعْفُو وَيقتدِرُ؟

وقد صدر العفو عندهم عن عزيمة وقوّة وحكمة وليس عن ضعف وَخوار أما العقوبة فكانت بقدر لا تتجاوز قيمة الحد إلى الظلم والإجحاف فى هذا الإطار دار قول ابن زيدون[4]:

لَكَ عَفْوُشَهْم يَضيَعْ حَزَامة وَلَئنْ بَطَشْتَ فَبَطْشُ مَنْ لاَ يَظْلِمُ

وقد جمع أبو عبد الله بن الحناط [5] الكفيف المتوفى (٤٣٧ هـ) بين الصفح عن المسئ، وإقالة العثرات والزلات فى قصيدته التى يرثى أبا الحزم بن جهور.

---

(١) آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة: ص١٦.

(٢) شعر ابن الحداد: ص٨١ وفى بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلس: ص١١٢ أختلاف الرواية صافح : منكر.

(٣) انظر المستدرك على مجموع شعر الإليبرى (أبو السحق): ص١١٧ محمد رضوان، الداية١٩٧٥.

(٤) الديوان: ص٣١٧ وانظر نظيره فى ديوان ابن عمار: ص١٦٣ والسلفى أخبار وتراجم اندلسية: ص ٣٢، ص١٠٤.

(٥) انظر الذخيرة: م١ ق١ ص٤٥٠.

ياواحـد الـدين والدنـيا أقـلْ زلـلاً ... يدعـوك جانـبه أن تقتـضَّى أَوتَـدَعا

لـو أنـه أعطـىَ الدنـيا بمـا رَحُـبَتْ ... ولم يَـنلْ عَفـوك المأمـول مـا قـنعا

ومـا عـساكَ سـوى الإحسان تـصنعه ... إلى مُـسىءٌ رجـا عُتـباك فارتجعـا

(السَّمَاحَة)

التسامح هو احترام لآراء الآخرين، ويتوقف على الأمور التى يتسامح فيها. قال لسان الدين بن الخطيب (خص الله بلاد الأندلس من الرَّبع ـ كثرة السلاح، ونيل الأخلاق ..... وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وصنع معدن السماحة)[١]. على أن المجتمع الأندلسى مجتمع يسر وحب وتسامح وابتعاد عن العصبية ما استطاع إلى ذلك سبيلا[٢]. والعرب كانوا آية فى التسامح وكانوا رحمة وبركة عموماً مدة إقامتهم فى الأندلس[٣]. وفى ظل هذا المناخ الذى يشع بالقيم الإيجابية التى غرست فى نفوسهم أروع الاتجاهات والتى هدفت إلى تحقيق سماحة الخلق مع سماحة الدين والدنيا (بقصد إعلاء شأن مثل أعلى)[٤].

إن للمجتمع الأندلسى، حياة تختلف عن المجتمعات الإسلامية الأخرى لقربه من الديار المسيحية واختلاط الأجناس المختلفة داخل مجتمعه فاختلاط الأجناس ومجاورة الديانات بعضها لبعض نجم جو سمح[٥] اتسم بالروح الإنسانية الشفافة ونتيجة لهذا التسامح المثال اتخذ اليهود والمسيحيون العادات الإسلامية ومارسوا أفكار المسلمين وتقاليدهم[٦]. فى ملابسهم ومطاعمهم* فهذه السجية وجهت

---

(١) أزهار الرياض فى أخبار عياض: جـ١ ص٦١، ١٤٦.

(٢) م.ن: ص ن.

(٣) أنيس زكريا النصولى: الدولة الأموية فى قرطبة: ص١٥٠ طـ١ . المطبعة العصرية بغداد: ١٩٢٦.

(٤) أحمد بن ابراهيم بن يحيى الأزدى: تحفة المغترب ببلاد المغرب ص ١١ تحقيق فرنادو دى لاجرانخا، منشورات المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٧٤.

(٥) الدكتور سامى مكى الغانى: دراسات فى الأدب الأندلسى: ص ٨٨ وانظر د. حكمة على الأوسى: فصول فى الأدب الأندلسى: ص٤٤/ ط٥/ بغداد١٩٨٧.

(٦) د/ عبد الرحمن الحجى: أندسيات : ص٢٧ المجموعة الثانية.

(*) وامتنع بعضهم عن أكل لحم الخنزير، ومارس الختان، وهو عادة إسلامية. وفى مخطوطة فى مدريد حيث هذه الوثيقة كتبت فى أهداء الكتاب ابياتا منها:

سلوك الإنسان إلى نفسه. ونحو خالقه وسيطرت عليه فى عقيدته وشخصيته وبقدر ما تتجلى قيم المسامحة الإنسانية أو تتجافاها يأخذ كل فرد صفته. هذا وقد تحسر ابن عبدون كما تحسرت الدنيا وتأسف الدين على سماحة عمر. فأنشد قائلا[1]:-

وَيْحَ السّماح وويح البأس لَوْ سلما وآحسرَة الدِين والدنيا عَلَى عُمُر

فلوعدنا إلى التاريخ لإضاءة الأدب لعرفنا من وجوب الإستعانة بالشعر لفهم ما دار فى حياتهم من تسامح شديد مع الأقليات غير العربية[2]، كذلك كان للنصارى حظهم فى الحياة العامة[3]. والخاصة مشاركين فيها من نطاق السماحة التى ظللت المجتمع الأندلسى وبعده عن التعصب المقيت.

هذا وقد دعا التسامح إلى إدامة تهذيب النفس وتطهير الفؤاد وتغذية القلب والعقل بالمبادئ السامية مبادئ الإباء والأنفة والأخوة فهو أساس النظام التهذيبى، وأساس قواعد الخلق.

والمبادئ الخلقية هى أساس كل شئ. قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ فإذا ضعف. بل خلق وصون عن الدنايا. فالدعوة إلى التسامح دعوة إلى الفضل الذى هو سمو النفس الذى لا تشوبه شائبة. ولعلّ السماحة والسماح كانتا شعاراً للمرابطين الذين تلثموا تصاونا[4].

وتلـــثموا صَـــوْناً لِـــرّقة أوْجـــه جعـــل الـــسمّاح شـــعارها ودثارهـــا

المـــنعمين علـــى العفـــاة أذ شـــتوا* والناقـــصين علـــى العِـــدا أوتارهـــا

كتاب لعبد المالك الأسقف الندب جواد نبيل الرفد فى الزمنِ الجُدبِ

انظر تاريخ الفكر الأندلسى: ص٤٨٤ ـ ٤٨٥ وانظر أندلسيات المجموعة الثانية: ص٢٦.

(١) قلائد العقيان: جـ١ ص١٣٠.

(٢) انظر دولة الإسلام فى الأندلس منذ قيامها حتى الفتح المرابطى: ص٢٠٣ طـ٣/ ١٩٨٨.

(٣) فصلت: ٣٤.

(٤) الخريدة: جـ٢ ص٢٧٣.

(*) شتوا: جدبوا فى الشتاء(بشاشة الوجه وطلاقته تدخل أطار السماحة).

أما مذهب إبن حزم فى التسامح فقد قال عن لسانه (وإنى لأسامح فى إخاء كل ذى عيب، وإن كان عظيماً وأكِل أمره إلى خالقه عز وجل، وآخذ ما ظَهر من أخلاقه)[1].

ومن سماحة الأندلسيين إنْ حَكَمَ الأندلسَ بعضُ أبناء الجوارى من رفيق الأسبان. حيث تطالعنا الجارية (أم ولد) فى عصر الطوائف أمّاً للملوك والوزراء أيضا كـ(حوراء) [2] والدة محمد بن عبد الرحمن المستكفى بالله جارية (أم ولد) ووالدة على بن يوسف (أم ولد) رومية[3] اسمها (قمر) وكذلك ناشفين بن على.

وبعد هذه النظرة العامة لفضيلة التسامح فى هذا المجتمع الذى دخلت من باب الرحمة والمحبة واحترام الآخرين وحقوقهم. عرضت أرفع القيم الحضارية وأسماها فى نفوسهم بكل ما يستحق من تقدير فى تاريخ البشرية.

---

(١) طوق الحمامة فى الألفة والألاف: ص١٠٣.

(٢)البيان المغرب: جـ٣ ص٦٤٠ ـ وانظر جذوة المقتبس: جـ١ ص٤٠.

(٣) م ن: ص ن.